

الصندوق الأزرق في بيت جدتي

حمادة حامد محمود نور الدين

في بيت جدّتي صندوقٌ أزرق صغيرٌ يتنفّس.

سمعته لينا في أول ليلةٍ لها في البيت، حين جاءت من القاهرة لتقضي الصيف عند جدتها في القرية. بيتٌ قديم على ضفة الترعة، له سورٌ من الطوب الأحمر وشجرة جمّيز تظلّل السطح، وفيه منذ رحل جدّو صمتٌ طويل يمشي في الغرف كأنه ضيفٌ لا يغادر.

كانت جدّتها تحبّها كثيرًا، تحضنها وتقبّلها وتصنع لها الفطير، لكنها لم تعد كما في صور الألبوم: امرأةً تضحك حتى تدمع عيناها. صارت جدتها تمشي ببطء، وتتكلم قليلًا، وتجلس عند الغروب تحدّق في الترعة وكأنها تنتظر أحدًا.

وكانت لينا تحبّ شيئًا غريبًا: أن تجمع الأصوات في دفترٍ أخضر صغير. كتبت فيه: صوت الماء في الترعة، صوت الديك فجرًا، صوت قلقَلِ باب السور حين تهبّ الريح. لكن أغرب صوتٍ سمعته جاء في منتصف الليل: «طنّ... طنّ... طنّ...» صوتٌ خافت دافئ، مثل قطةٍ صغيرة تخرخر داخل حائط.

تبعت الصوت على أطراف أصابعها حتى وصلت إلى الصالة، وهناك، خلف الخزانة القديمة، وجدته: صندوقًا أزرق في حجم علبة حلاوة المولد، لونه كلون السماء قبل المغرب بلحظة، وغطاؤه يرتفع وينخفض... يرتفع وينخفض، كأنه يتنفس.

مدّت لينا يدها وفتحت الغطاء ببطء، فخرج نورٌ أزرق خفيف وقال الصندوق بصوتٍ يشبه حفيف القش: «اسمعي يا لينا... اسمعي. أنا أحفظ أصوات البيت التي نسيها الناس. كل صوتٍ تركه أصحابه يأتي إليّ، وأنا أحرسه. لكن الصوت لا يستطيع أن يخرج مني إلا إذا فعل أحدٌ شيئًا صغيرًا.»



وسألته لينا: «ولماذا لا تخرج الأصوات وحدها؟»

فقال: «لأن الصوت بلا بيتٍ يذوب في الهواء... وأنا لا أريد أن تذوب أصوات هذا البيت.»

ثم اهتزّ الصندوق وقال: «الصوت الأول مستعد. افتحي الغطاء غدًا وستعرفين مهمته.»

وفي الصباح فتحت الغطاء، فخرج منه صوتٌ عجوزٌ مبحوح: «أنا صوت ساعة الحائط. كنت أدقّ كل ساعة في هذا البيت أربعين

عامًا، ثم توقفت يوم توقّف الناس عن لفّ مفتاحي. مهمتي الصغيرة: لفيّ مفتاحي.»

صعدت لينا على كرسي، وبحثت خلف الساعة العجوز حتى وجدت المفتاح النحاسي معلّقًا على مسمار، وأدارته ثلاث لفات... فإذا بالساعة تسعل سعلةً صغيرة، ثم تمشي: تِكْ... تَكْ... تِكْ... تَكْ. وطارت من الصندوق شرارةٌ ذهبية صغيرة استقرّت في قلب الساعة، وصار البيت أكثر إضاءةً قليلًا، والصندوق الأزرق أخفّ قليلًا.

وفي المساء خرج الصوت الثاني، صوتٌ دافئ يعرف الغناء: «أنا صوت الراديو القديم. كنت أغني أم كلثوم كل خميس، والبيت كله يغني معي. مهمتي الصغيرة: أعيدي زرّي العالق إلى مكانه.»

قلّبت لينا الراديو على وجهه، فوجدت الزر البنيّ غارقًا في مكانه كأنه نائم. ضغطت عليه بممحاة قلمها حتى قفز وقال: طق! وشخر الراديو شخرةً عجوزًا، ثم فتح فمه وغنّى: «رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا...»

توقفت يدا جدتها عن غسل الأطباق. ورأت لينا قدم جدتها تتحرك على الأرض مع الطرب... حركة صغيرة جدًا، لكنها حركة.

وفي اليوم الثالث خرج الصوت الثالث وله رائحة: «أنا صوت قِدر الملوخية. كنت أغلي على النار كل جمعة، ورائحتي تملأ البيت والسور وطريق الترعة. مهمتي الصغيرة: اطبخي مع جدتك.»

ذهبت لينا إلى جدتها وقالت: «علّميني أطبخ الملوخية يا جدتي. أنا عايزة أتعلم منك إنتِ، مش من حد تاني.»

نظرت إليها جدتها طويلًا، ثم لبست مريلتها. ووقفتا معًا في المطبخ: جدتها تخرت الملوخية وتقول: «خُرت يا حبيبتي، والملوخية بتحب اللي يخرِتها حب.» ولينا تقيس الثوم والكزبرة وتقف على رؤوس أصابعها لتنظر داخل القدر. وملأت الرائحة البيت كله: رائحة الثوم المحمّر والسمنة البلدي، حتى جاء الجار أم صابر يطرق الباب ويسأل: «إيه الحلو ده؟»

وضحكت جدتها... لا، ابتسمت فقط. ابتسامة صغيرة مثل شمس تختبئ وراء سحابة.

وفي تلك الليلة كان الصندوق أخفّ من ريشة، لكن صوته كان حزينًا: «بقي صوتٌ واحد يا لينا... آخر الأصوات وأثقلها.»

«صوت مين؟»

سكت الصندوق لحظة، ثم قال: «ضحكة جدتك. خبّأتها عندي منذ رحل جدّو. جاءت إليّ في الليل وقالت: احرسها لي، فليس عندي وقتٌ للضحك بعد اليوم. ومن يومها وأنا أحملها، وهي تثقلني وتدفئني معًا.»

«وكيف تخرج؟»

«لا تخرج الضحكة بالقوة يا لينا... الضحكة لا تخرج إلا إذا ضحك البيت كله.»

حاولت لينا في اليوم التالي أن تضحك جدتها. حكت لها نكتة عن دجاجة عبرت الطريق، فقالت جدتها: «حلوة يا قلبي» ولم تضحك. لبست طاقية جدّو القديمة ورقصت رقصةً مضحكة، فارتعش فم جدتها ارتعاشةً صغيرة... ولم تضحك.

وفي ليلتها الأخيرة قبل العودة إلى القاهرة، جلست لينا تفكر، ثم فتحت عينيها على اتساعهما. الصوت لم يقل: أضحكي جدتك. الصوت قال: اجعلي البيت كله يضحك!

فقامت من فورها. لفّت مفتاح الساعة. شغّلت الراديو على أم كلثوم. طلبت من جدتها أن تطبخا الملوخية معًا «لآخر ليلة». ووضعت طاقية جدّو القديمة على رأس القطة بهلولة...

وانفجرت المفاجأة وقت العشاء: القطة بهلولة مشت بالطاقية على عينيها فاصطدمت بالباب، والراديو شخر في أعلى صوته مع المطربة، والساعة العجوز دقّت سبع مرات رغم أن الساعة كانت التاسعة، ورائحة الملوخية تصعد من المطبخ، وصاحت لينا وهي ترقص مع القطة: «البيت كله بيغني يا جدتي!»

فنظرت جدتها إلى الساعة المجنونة، وإلى الراديو المشخوِر، وإلى القطة المطقوَّقة، وإلى لينا الراقصة... وفجأة انفجرت ضاحكة: ضحكةً كبيرة واسعة، ضحكةً مثل الأجراس، ضحكت حتى دمعت عيناها وحتى أمسكت بطنها وحتى قالت: «يا لهوي... يا لهوي على بيتٍ رجع فيه الصوت!»



ضحك البيت كله.

وفي تلك اللحظة طار غطاء الصندوق الأزرق وحده، وخرج منه نفَسٌ ذهبي دافئ، دار في الصالة دورةً كاملة، ولمس الساعة والراديو وقِدر الملوخية، ثم دخل في صدر جدتها دخول النسمة في النافذة.

سكتت جدتها لحظة، ووضعت يدها على قلبها، وقالت بصوتٍ يرتجف: «كنتُ أظنّ أنني نسيتُ كيف أضحك يا لينا... تبين أن ضحكتي كانت مسافرة، وعادت.»

وحين نظرت لينا داخل الصندوق لم تجد فيه إلا ريشةً زرقاء صغيرة، وقال الصندوق: «احتفظي بها في دفترك الأخضر. أنا فارغٌ الآن... لأن كل الأصوات عادت إلى بيتها.»



وسافرت لينا إلى القاهرة، وفي دفترها الأخضر صفحةٌ جديدة كتبت فيها: «صوت ضحكة جدتي... أجمل صوتٍ في العالم.»

أما في بيت القرية، فما زال الصندوق الأزرق يطنّ أحيانًا في منتصف الليل: «طنّ... طنّ...» منتظرًا صوتًا جديدًا يحرسه. لكنه لا

ينتظر طويلًا أبدًا، لأن بيت جدتي لم يعد بيتًا صامتًا... ففيه ساعةٌ تمشي، وراديو يغني، وقِدر ملوخية يغلي كل جمعة، وجدّةٌ تضحك حتى تدمع عيناها.

تمّت

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app